بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يشتمل هذا الكتاب على موضوعين، الأول دراسة لأربعة من شعراء مصر في أواخر العصر الفاطمي، أولهم حفيد لابن هانئ الشاعر الأندلسي الشيعي الكبير شاعر المعز بالله مؤسس الدولة الفاطمية. ويتفق في اسمه مع جده، ومُيِّز منه بإضافة لقب الصغير، ولم يكن شاعرا صغيرا بل كان شاعرا بارعا دخل مصر في عهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٥-٥٤٤هـ). واستقر بها يمدح من وَلِيَ مصر من الخلفاء وحَكَمَها من الوزراء، ونحّى العماد الأصبهاني السُّنّي من أشعاره كل ما يتصل بالتشيُّع، واهتم بعرض مقدمات أشعاره ومدائحه، وهي تتناول ثلاث شعب عنده: وصف الطبيعة ووصف الخمر والغزل، وأولها أروعها، وهو في شعره يتأثر جده وابن خفاجة شاعر الطبيعة الأندلسي، وكان مثله ينزع إلى كثرة التصاوير في أشعاره، مما وصل أشعاره بالصور والأخيلة، معبراً بها عن مقدرة شعرية بديعة.

ويليه طلائع بن رُزِّيك وزير الخليفة الفاطمي (٥٤٩-٥٥٥هـ) وكان ممدَّحاً، أكثرَ الشعراء المصريون من مديحه، وكان شاعرا كبيرا، وتميَّز عهده بكثرة المعارك مع الصليبيين برًّا وبحرا، وكان متشيِّعا وله رثاء بديع في الحسين بن علي ابن أبي طالب، ويلفتنا عنده أنه كان فارسا شجاعا وأنه خاض بجيوش مصر انتصارات حربية كثيرة مع الصليبيين، وكان يرى أن يظل يهاجمهم من الجنوب في فلسطين بينما يهاجمهم نور الدين من الشمال، وكتب إليه في ذلك قصائد متعددة رائعة، وحظِيَتْ مصر في عهده بمجد حربي ضد الصليبيين، وكانت

خيولها ما تزال تصهل في ميادين الحرب برًّا بينما تجوب أساطيلها شواطئ فلسطين وتفتك بسفن الصليبيين، وكل ذلك تصوره أشعاره تصويرا دقيقا.

وأَتبعْتُهُ بشاعره الجليس بن الحباب، وكان كاتبا بارعا ولذلك أُسْنِدَت إليه رياسة ديوان الإنشاء في عهد الخليفة الفائز ووزيره طلائع بن رزِّيك، وهو شاعر طلائع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة يشيد بحروبه ومعاركه مع الصليبيين وانتصاراته فيها، وبذلك وصف هذه المعارك وما كان لمصر فيها من أمجاد حربية حقيقية وصفا بديعا تُعينه في ذلك مهارة في نظم الشعر، وهو يسوق فيه كثيراً من الصور والأخيلة التي لا تستر المعاني بل تَزيدُها بياناً ووُضوحا، وهو إلى ذلك كان يتميَّز بما يتميَّز به الشعراء المصريون من خِفَّة الروح ونظم رقائق الشعر، مع كثرة ما عنده من الفكاهة والنوادر المستحبَّة.

والشاعر الرابع: ابن الكيزاني، وهو ليس من شعراء المديح أو الطبيعة أو الخمر، إنما هو من شعراء الحب الرباني، وكان فقيها واعظا عالما بالعلوم الإسلامية من حديث نبوي وتفسير وبالأصول والفروع، وكان عالما بالفلسفة ومذاهبها وبالنحل في عصره. واختار لنفسه طريقة سُمِّيت الكيزانية تبعه فيها كثير من معاصريه، إذ كان يرى أن أفعال العباد قديمة، لأنها تدخل في علم الله بها، وعلم الله قديم. وكان المعتزلة يبرِّئون الله من التشبيه بالتنزيه، وهو يشبه الله بالآدميين وينزهه عن التجسيم. وكان له ديوان شعر كبير يتهافت المصريون على اقتنائه، سقط من يد الزمان، غير أن العماد الأصبهاني اطلع عليه وأُعجب بروعته، فنقل منه ثلاثمائة بيت، تصور حبَّهُ الرباني الصوفي تصويرا دقيقا، وهي تتدفق بعواطف المحبة الصوفية الربانية، وهي ليست محبة كمحبة الغزلين الحسية لصواحبهم وشكواهم من الصد والهجر والسقم، فإنه يشتهي دائما سقمه في حبه ولا يشتكي السهاد بل يؤثره كما يشتهي الهجران والصد، والمحبوب لا يُلام بل هو الجدير باللوم. وهو في ذلك يُعبِّر عن حب ربَّاني كله مواجد وتلهُّف

ولوعة وأهوال ومقامات يندلع شديدها فى نفسه أملا فى الاتحاد بالحبيب والفناء فيه. وتتجلّى فى الأفق حوله صورة حبيبه وسرعان ما تختفى ويهيم بها هياما يتقلّب فى نيرانه ظامئا فى أشعار تسيل عذوبة، وداؤه دائما الحبيب، ودواؤه أيضا الحبيب، ويعيش فى الحب الربانى وعذابه.

والموضوع الثانى فى الكتاب الفكاهة فى الأدب المصرى، وفكاهة المصريين قديمة منذ عصر الفراعنة، وتتضح فى الصور التى خلّفوها. وظلّت هذه الروح الفكهة لا تفارقهم فى عصر الرومان ونراها ماثلة فى الشعر المصرى منذ أخذت مصر تتبيَّن شخصيتها فى عصر ابن طولون والعصور التالية. ويشتهر فى عصره بالروح الفكهة الشاعر المنبوز بالجمل الأكبر. وفى عصر الإخشيد يشتهر شاعر بلقبه: قاضى البقر. وتظل هذه النزعة بالألقاب الفكهة فى العصر الفاطمى كأن نجد شاعرا ينبز بلقب شلعلع، وشاعرا ثانيا يلقب بالنسناس، وثالثا بلقب ابن مكنسة. وتتضح هذه الروح المصرية الفكهة فى شعر ابن وكيع التنيسى إذ تكثر عنده الدعابة. ويبرز منذ العصر الفاطمى فى شعر المصريين ميلهم إلى التلاعب بالألفاظ بقصد المرح، وأخذت تكثر عندهم التوريات بألفاظ لها معنيان: معنى قريب يدل عليه سياقها فى الألفاظ السابقة لها، ومعنى بعيد هو المطلوب. وتكثر عند المصريين مع التوريات الأهاجى اللاذعة كما فى أهاجيهم للخلفاء الفاطميين وما كانوا يدعونه من نسبهم إلى الحسين وأمه فاطمة الزهراء. ولهم – بجانب ذلك – دعابات كثيرة كوصف البهاء زهير لبغلة أحد أصدقائه بأن خطواتها إذا سارت كان مقدارها أنملة، ولا تزال تهتز واقفة كأنما هى زلزلة. وتكثر عندهم التوريات كثرة مفرطة، مما جعلنى أعرض طائفة كثيرة منها منذ أوائل زمن الدولة الفاطمية إلى أواخر عصر المماليك. ونبزوا أميراً باسم حمص اخضر، ومنها الملىء ومنها الفارغ فتارة تكون معه نقود كثيرة وتارة يكون خاليا منها، ويقول له شاعر إنك حزت مالا كثيرا وقلوبنا عليك يا حمص أخضر ملانة، فقد

أراد للملانة معناها الفصيح وهو أنها ملآنة عتابا لعدم توزيع الأموال على الناس، والتورية واضحة، ومن ذلك قول ابن نباتة الشاعر فى صديق فارق زوجته وكانت تُسمَّى دنيا إنك "رحت لا دنيا ولا آخره" فقد فقدهما جميعا. والشعر المصرى – منذ عصر الدولة الفاطمية – يموج بالفكاهة وتمثّلنا بكثير من أبياتها. ومن كبار الفكهين فى الشعراء الجزّار، وكان يكثر من إضحاك الناس على معيشته ومسكنه الضيق وملبسه ومطعمه وزوجة أبيه العجوز. ومن الفكهين المضحكين ابن دانيال، وكان كحَّالاً حاضر البديهة، وله أبيات طريفة يقول فيها إن نقوده التي ينفقها على معيشته وحياته يأخذها من أعين الناس. وله مسرحية طريفة كأنما كُتبت فى هذا العصر، جعلها قريبة من العامية المصرية، كتبها فى زمن الظاهر بيبرس أسماها «طيف الخيال»، وتدور حول مشكلة الخاطبة فى العصور الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى العروسين، فالزوج أمير موصلى وهو بائس فقير، والزوجة فتاة مصرية وهى عجوز شمطاء قبيحة. وتمزج المسرحية بالروح المصرية الهزلية، وهى تبدأ بقرار الظاهر بيبرس بتحريم المنكرات وإغلاق الخمارات، ويرثى طيف الخيال إبليس، فقد مات والخمار محبوس وأوانى الخمر مكسرات، ويستمر فى هذا الهزل الماجن، ويطلب من أمير الموصل المهر فيتباكى ويعلن فى قصيدة طويلة أنه فقير ويصور فقره فى قصيدة تصويرا مضحكا، ويشكو من قبح زوجته شكوى مرة واصفا سُكْرَهُ ومجونه وصفا فكها. ونلتقى أخيرا بابن سودون أكبر شعراء مصر الفكهين، وله ديوان جميعه هزل يقوم على مفارقات منطقية مضحكة.

ونلتقى فى هذا القسم بثلاثة كتب فكهة، أولها كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش، وهو كتاب ألّفه ابن مماتى صاحب ديوان الجيش والمال فى عهد صلاح الدين الأيوبى، وهو من أسرة قبطية قرَّبتها الدولة الفاطمية منها، وعهدت إليها بأعمال فى الدولة ودواوينها منذ جده مماتى. وكانوا يتولّون ديوان الإقطاعات

وشئون المال، وكان يتولّى هذا الديوان في أواخر عهد الدولة الفاطمية والد مؤلف كتاب الفاشوش، ويسمى المهذب الخطير، ولما تطورت الظروف السياسية، وأصبح أسد الدين شيركوه وزيراً أعلن إسلامه، وأسلمت معه أسرته، وظل يلي ديوان الجيش والمال لأسد الدين شيركوه ثم لصلاح الدين، وورث ابنه عنه وظيفته في الدواوين، فأصبح يلي ديوان الجيش والمال، وكان شاعرا مبدعا، وكان ظريفا ويسمّيه القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بلبل المجلس لما كان يطرف به من الفكاهات المستحبّة. وكان يعاصره قره قوش التركي أحد قواد صلاح الدين، وكان يعجب به، فجعله كلما تغيّب عن القاهرة – في حروبه للصليبيين – محافظا لها، وكثيراً ما كان يتغيب عنها شهورا بل سنين. وفيه ألّف ابن مماتي كتابه الفاشوش، ويبدو أنه كان فيه شئ من الغفلة والحمق حين يحكم بين الناس في قضاياهم، فانتهز ابن مماتي فيه هذا الجانب وأخذ يكبّره في نوادر، لا نقرؤها في كتاب الفاشوش حتى نغرب في الضحك، إذ تنقلب أوضاع المتقاضين عنده، فيصبح الشاكون مشكوّين، والمشكُوُّون شاكين، وكأنما دار المحافظة أصبحت ملعبا من ملاعب الهزل يذهب المصريون إليه للفرجة والترويح عن النفس بما يرون من أحكام هذا الحاكم من غباء وظلم، لأنه يخالف كل ما تواضع عليه الناس من منطق وفهم. ويتساءل الباحثون لماذا عرض ابن مماتي أحكام قراقوش هذا العرض الهزلي المضحك لأكبر موظفيها وأحكامه؟ ونظن أنه أراد أن ينتقم من الدولة الأيوبية الأجنبية التي تسلّطت على مصر وحكمتها دون أبنائها. ونجح ابن مماتي نجاحا منقطعا، إذ اتخذت العصور التالية بعده قره قوش مثلاً لكل حاكم ظالم فيه شئ من البله والغفلة.

والكتاب الثاني هو ديوان «نزهة النفوس ومضحك العبوس» لابن سودون في القرن التاسع الهجري، بدأ حياته يحفظ القرآن الكريم، وانتظم في القاهرة بحلقات الشيوخ يحصّل عليهم الفقه والعلوم الإسلامية واللغوية، حتى أصبح من

الشيوخ الفقهاء، وعُيِّن إماما بأحد مساجد القاهرة وكانت فيه نزعة متأصلة إلى الفكاهة والهزل، ونظم فيهما بابين مهمَّين من هذا الكتاب، وهو فى خمسة أبواب، أولهما فى قصائد فصيحة، والثانى فى الحكايات وهى قصص عامية قصيرة فكهة، والثالث فى الموشحات والرابع فى الزجل والمواليا، والبابان بعامية قريبة جدا من لغتنا العامية، وهما يدلان على أن مصر لا تتطور عاميتها مع العصور إلا تطورا ضئيلا أو محدودا، والباب الخامس لطرف عجيبة وتحف غريبة من النوادر النثرية المضحكة. ونقف عند البابين الثالث والرابع اللذين جعلهما للشعر العامى الفكاهى، وهو يُعدُّ بهما أهم شخصية مصرية فكهة فى العصور الإسلامية السابقة، وقد بنى فكاهاته على المفارقات المنطقية، إذ يقف من مطلع موشحاته وأزجاله موقفا صارما يقول فيه إنه سيذكر عجائب، وما يلبث أن يعرض عليك بدهيات وما يشبه البدهيات، مما يجعلك تشعر فى أثناء قراءتك له باختلال توازنك فتغرق فى الضحك إذ يقدم لك بدهيات على أنها عجائب أو حقائق أولية على أنها غرائب. ومن أطرف أشعاره العامية مرثيته لأمه، ساق فيها تربيتها له فى طفولته من دلعها له وشكشكته بإبر زجراً وتخبئتها له من أبيه حين كان يهرب من الكتّاب، وغير ذلك مما عاشه طفلا، وأن عمره أربعا وأربعين سنة فقط، وفى أثناء مرثيته لها يذكر بعض لغة الأطفال فى خطابه لها، والمرثية زاخرة بالفكاهة ومثلها وصفه لحفل زفاف، والدنيا من حوله ترقص والطير يشدو على الشجر بتهنئة العروسين، ويرى العروس فيصيبه غمٌّ شديد لقبحها، ويصوره تصويرا مبالغا فيه ليُضحك سامعيه ويُعجب بقامتها العوجاء. ويكثر فى فكاهاته من تقليد لغة الأطفال وأصوات الحيوانات، وهو دائما يهزل ويتباله هذا البله المضحك. والباب الثانى فى الكتاب الذى يعرض فيه ابن سودون بعض القصص يكتظ بالنوادر المضحكة مثل الباب الخامس: باب الطرف العجيبة والتحف الغريبة.

والكتاب الثالث «هز القحوف» ليوسف الشربيني، وكان فقيها فاضلا مثل ابن سودون، وعنى بالفكاهة والهزل، وبهما عرض بؤس الريف المصرى زمن الحكم العثماني بمصر، فنظم قصيداً سمَّاه أبا شادوف، والشادوف كان آلة يُسقى بها الزرع لعصر الشربيني ورأى أن ينسب القصيد إلى أبى شادوف ليدل على أن القصيد من نظم هذا الشاعر الريفى، ونظمها بلغته العامية وصف فيها حياة الريف وأهله زمن العثمانيين وما كانوا فيه من بؤس وتعاسة شديدة. وكان العلماء اللغويون فى عصره وقبل عصره يختارون بعض القصائد المشهورة ويشرحونها لفائدة الطلبة ومن يعنون بقرائتها ودراستها، فرأى أن يصنع صنيعهم ويشرح قصيد أبى شادوف الذى يصور حياة الفلاح المصرى فى زمن الحكم العثمانى بمصر وما صبُّوا عليه من الظلم، وهو يسوقها فى صور من الهزل اللاذع. ورأى الشربينى أن يشرح القصيدة ويطيل فى وصف تعاسة أهل الريف المصرى حينذاك ويعرضها فى حشد من الهزل والفكاهة تغطِيةً لنقده الساخر. ومن طريف تصويره فيه تصويره لأعراس أهل الريف. وتتوالى فى الكتاب صور لبعض معارف الفلاحين تدل على جهل شديد كان يسود حياتهم، فهم فقراء وجهلاء، وكان علماؤهم على شاكلتهم، ويذكر خطبة عامية لأحد وعَّاظهم يصور فيها تملُّقه للكاشف الذى كان يجمع الضرائب من أهل الريف فيقول لسامعيه: "اعلموا أنَّ عندكم قمحٌ كثيرٌ وتبن وشعير وأنتم فى خير من رب العالمين"، وهو نفاق واضح، ويتبعه بما يجب عليهم من إتقان الزرع فى الوسيَّة (الحقل). ولكى يصور مدى جهل أهل الريف عرض خطابا لفلاح صعيدى أرسل به من القاهرة إلى أبويه فى الصعيد، وهو ملئ بما يُضحك من غفلة وجهل شديد. ويختم الكتاب بعرض خطبتين لجاهل لم يضمنهما وعظا كالوعظ المعتاد فى الخطب إنما ضمنها وصفا للأطعمة التى كان يسيل لها لعاب أهل الريف، ويسمعون عنها وقلما ذاقوها، والشربينى بذلك كله وبكتابه إنما كان يريد أن يخز العثمانيين فى حكمهم لمصر وخز الإبر.

وهذا الكتاب إنما يدعو الباحثين إلى دراسة الطبقة المصرية التى كوَّنها الأدب العربى، وهى طبقة متميزة بما انطبع فيها من أمزجة المصريين ونفسياتهم. وإنَّ من ينظر فيها يلاحظ أن بعض هذه الطبقة يندمج فى الطبقات العامة للأدب العربى الفصيح وبعضها يستقل عن هذه الطبقات بما اختار له أصحابه من لغة عامية أذاعوه فيها، وهى عامية تُعتبر خليطا من العربية الفصيحة وبقايا لغتنا القديمة.

وإن من يقرن ما كتبناه فى العربية الفصحى إلى ما كتبناه فى عاميتنا يجد الثانى أكثر صلة بنا فهو يفسر حياتنا من جميع وجوهها السياسية والاجتماعية. فالشاعر الفصيح لا يكون شاعراً إلا إذا خضع للتقاليد ونظم كما ينظم بشَّار وأبو تمام والبحترى والمتنبى، فهذه هى مُثُله التى ينظم على أساسها وليس من الضرورى أن يرتبط بمُثل حياته إنما هو يرتبط بحياة هؤلاء الشعراء لأنه يريد أن يكون مِثْلهم وأن يصبح فى عدادهم.

على أن هذا الأدب العامى ليست آثاره شيئا قليلا بل إننا حين نُعنى بدرسها سنجدها أشبه ما تكون بفيضان كبير. وإن جوانب درس هذا الأدب لتتفرع فروعا كثيرة، إذ ينبغى أن نوجد له «أجروميته» كما ينبغى أن نوجد له معاجمه. وأيضا ينبغى أن ندرس تاريخه وتطوره وما عمل فيه من عناصر أجنبية أو داخلية، وما نبت منه فى مصر وما جاءها من الخارج وما أقلمته وصبغته بصبغتها الخاصة. وأثناء هذا الدرس ينبغى أن تُبعث نصوصه وأن تُنشر، فإن ذلك كله يأتى بثمار علمية بديعة يفيد منها تاريخنا وأدبنا فائدة محققة. والله أسأل التوفيق والسداد فى الفكر والعمل، وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ١ أغسطس ١٩٩٩

شوقى ضيف